الموت

ها أنا أطفو فوق سطح المحيط مع ذكريات الرضاعة وبدايات رحلة الأمومة. أطفو مبتسمة مستكينة آمنة، ثم أسمع صوت «آدم» المتعثر في القراءة، المتلعثم في الكلام، يأتيني من بعيد وكأنه يعيدني إلى الواقع الذي لا مفر منه. تأتيني معه ومضات من خطه المرتعش وحروفه المرتبكة وجمله التي تفتقد المسافات. أصرخ! أصرخ فيه وفي نفسي! يهتز جسدي فأغرق في محيط الحزن والذنب والندم! أغمض عيني وأحاول أن أتنفس الماء! لماذا لا أغرق وينتهي كل شيء؟ لماذا لا أموت وأتحرر من هذا الألم؟

أجفف نفسي وأرتدي شرائط حريرية. أطلق العنان لشعري وأفرد ذراعي استعدادًا للطيران! أقف على الحافة وأراقب الدنيا تسير، ستسير بي أو بدوني، الحياة لا تتوقف عندي! لا أنظر خلفي ولا فوقي. آخذ آخر نفس عميق وأطير، أطير من فوق الحافة لأغرق في قاع المحيط. ينتظرني وحش الخوف من الفقد وقد خلع عنه تنكره وأصبح الفقد نفسه. أنا في أحضان الفقد الآن مع حمادة ومجدي.

مات مجدي في الأربعين من عمره، عندما التهم اليأس رغبته في الحياة، تاركًا خلفه

خالتي وابنتها في مهب الريح. تأتيهما رياح الحزن والحنين فتثقل قلوبهما، ثم تأتيهما نسمات الرحمة لتبرد نار الفراق. تتغير عليهما المواسم ولا يوجد شيء، أو أحد، يمكنه سد الثقب الأسود الذي خلقه الفراق في قلوبهما.

أما حمادة، مثله مثل مجدي، جاءه ما يشبه دور البرد، وقضى عليه في ثلاثة أيام. كان حمادة في منتصف عامه الأول في الجامعة، وكانت عمتي قد بدأت تجني ثمار شجرتها الطيبة. اقتلع القدر شجرتها الطيبة وغير الحزن ملامح وجهها. في كل عام، من بعده، تختم له القرآن وتدعو له. تمر عليها سنويته ثقيلة كئيبة، يمر عليها عيد ميلاده حزينًا وحيدًا، ويمر عليها عيد الأم كالعاصفة التي لا يسمع صوت صفيرها سوى الموتى والثكالى. صارت عمتي كالشجرة ذات الجذع المخروم، لا هي حية تنمو ولا هي ميتة سالمة. تمر الرياح من وسط جذعها فتصدر أنينًا خافتًا أو صريرًا رقيقًا، يصلني في قاع المحيط.

سألت عمتي وأنا حامل عن الفقد، كان وحش الفقد يناديني من قاع المحيط وكنت أخافه وأخاف صوته، قلت لها إنني أخاف أن يموت «آدم». أخاف أن أفقده كما فقدت هي حمادة. قلت لها إنني لم أعرف هذا النوع من الخوف من قبل وليست لديَّ مهارات التعايش معه. قالت لي إنها ليست حزينة. قالت إنها تفتقده. قالت إنها تشكر ربنا لأنه أعطاها الفرصة لتستمع به وبوجوده لمدة 17 سنة. نصحتني ألا أنصت لصوت الوحش القابع في أعماق المحيط. نصحتني أن أستمتع بحملي وبطفلي بعد ميلاده.

جعلت الذكريات السعيدة هدفًا لي، أكاد أن أنجح، إلى أن أسمع صوت «آدم» المتعثر في القراءة، المتلعثم في الكلام، يأتيني من بعيد وكأنه يعيدني إلى الواقع الذي لا مفر منه. تأتيني معه ومضات من خطه المرتعش وحروفه المرتبكة وجمله التي تفتقد المسافات. أصرخ! أصرخ فيه وفي نفسي! يهتز جسدي فأغرق في محيط الحزن والذنب والندم! أغمض عيني وأحاول أن أتنفس الماء! لماذا لا أغرق وينتهي كل شيء؟ لماذا لا أموت وأتحرر من هذا الألم؟